دار الحديث العراقية

جزء عم

تفسير سورة

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، اللهمَّ إنَّا نسألك رحمتَك فَهِي خيرٌ مما يجمعونَ ، اللهمَّ إنا نعوذُ بك من كل متكبرٍ لا يؤمنُ بيوم الحساب ، اللهمَّ ليس لنا ما تَمنيا فلكَ الآخرةُ والأولى فأحسنِ اللهم عاقبتنا في الأمور كلِّها وأجرنا منْ خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اللهم وفقنا لسلوك دينك الحق ، واهدنا إلى صراطك المستقيم ، صراطِ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

اللهم من آذانا فاهدِه إلى التوبة وإلى الصراط المستقيم وأشغله بخدمة القرآن ونشر سنة سيد الأنام ؛ اللهمَّ من تربص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم سوءاً فاجعلِ اللهم دائرةَ السوءِ تدورُ عليه .

أما بعد :

موعدنا اليوم مع تفسير سورة : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة)) هكذا سماها البخاري في صحيحه، وكذا غيره من أهل الحديث ، وتسمى بـ(الغاشية) كما في المصاحف وكتب التفسير وكثير من كتب الفقه والحديث اختصاراً . وتسميتها بـ سورة : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة)) جاءت في السنة وأخرج ابن أبي شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود و ابن ماجه الترمذي والنسائي من حديث النعمان بن بشير أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) و(هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ) وإنْ وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً .

موضوع هذه السورة يدور حول تقديم مشهدين من مشاهد يوم القيامة مشهد من مشاهد اهل النار ومشهد من مشاهد أهل الجنة وبعدهما أمرٌ بالنظر التفكري في بعض آيات الله الكونية الدالة على عظمته وقدرته على البعث والنشر ، ثم التأكيد على وظيفة المؤمن الدعوية في رحلة الحياة رحلة الاختبار والابتلاء .

أما مناسبتها لما قبلها : فقد كانت خاتمة سورة الأعلى إقراراً لفضل الآخرة على الحياة الدنيا ، فجاءت فاتحة سورة الغاشية بياناً لصورة من صور الآخرة بما فيها من مشاهد الخسارة والربح في الجحيم والنعيم .

وسورة (هل أتاك حديث الغاشية) مكية.. نزلت بعد سورة الذاريات..

عدد آياتها: ست وعشرون آية.

وعدد كلماتها: اثنتان وتسعون كلمة.

وعدد حروفها: ثلاثمائة وواحد وثمانون حرفا. وهي من أواسط المفصل تكثر قرائتها في الصلوات ، ولها وظائف منها أنها تقرأ في الجمع والأعياد كما في الحديث الآنف الذكر لما حوته من وظيفة التذكير التي هي وظيفة كلِّ مؤمن .

وقوله تعالى : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)) استفهام جيء به لأجل التشويق والحث على الاستماع لحديث الغاشية ، فهي إذن اسْتِفْهَامِيَّةٌ ; لِلَفْتِ النَّظَرِ، وَشِدَّةِ التَّعَجُّبِ، وَالتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ هَذَا الْحَدِيث .

وافتتاح السورة بهذا الافتتاح- بجانب ما فيه من تشويق- يدل على أهمية هذا الخبر، وأنه من الأخبار التي ينبغي الاستعداد لما اشتملت عليه من معاني لا يصح التغافل عنها.

وتشمل (هل) معنى (قد) بمعنى قد أتاك حديث الغاشية فيكون السؤال تقريراً على سبيل الامتنان. وفي ذلك تنبيه على أن تفاصيل يوم القيامة لا تنال إلا بالوحي ، على أنَّ العاقل الحصيف يمكنه أن يتوصل بالعقل إلى ضرورة اليوم الآخر الذي ينال فيه المحسنُ جزاءَه ، ويُقتص فيه للمظلوم ممن ظلمه وتظهر فيه الحكمة من خلق الخليقة .

والحديث يراد به الخبر والكلام ، والمراد هنا الخبر عن يوم القيامة أي : هل أتاك خبر يوم القيامة التي تغشى الناسَ بأهوالها وتغطيهم وتعمّهم بالكرب والبلاء ، وهو يوم عظيم عظّمه الله وحذّر عباده منه .

والْغاشِيَةِ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتغطيهم وتعمهم وتلبسهم أهوالها.

والغاشية صفة ليوم القيامة فهذا اليوم يغشى الناس جميعاً ، ولا مخلص لأحد منه خفف الله عنا وعنكم كرباته . فالْغَاشِيَةُ كما قَالَ أَبُو حَيَّانَ: أَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ: الدَّاهِيَةُ تَغْشَى النَّاسَ قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِهَذَا الِاسْمِ ; لِأَنَّ مَا أَحَاطَ بِالشَّيْءِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ فَهُوَ غَاشٍّ لَهُ ، وَالْقِيَامَةُ كَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا تَرِدُ عَلَى الْخَلْقِ بَغْتَةً ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) .

وَالثَّانِي: أَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ بِالْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدَ

ويؤول معنى الآية : استمع أيها المتلقي هذا الحديث عن الغاشية .

قال تعالى : ((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَة)) وقد ذكرت الوجوه لأنَّ الوجه يظهر عليه أثر الفرح والحزن، كما مر في آخر سورة (عبس) والمقصود بالوجوه أصحابها . وهذا الإطلاق من إطلاق البعض وإرادة الكل ، ومعلوم أنَّ الوجوه أفضلُ مميز يميز الفروق بين الأفراد . وقوله (يَوْمَئِذٍ) أي : يوم القيامة الذي تغشى الناس .

«يَوْمَئِذٍ» : هُوَ يَوْمُ الْغَاشِيَةِ الْمُتَقَدِّمُ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْغَاشِيَةَ عَامَّةٌ فِي الْفَرِيقَيْنِ. وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُهَا مَعَ مُخْتَلَفِ النَّاسِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَغْشَاهُ بِهَوْلِهَا وهم الأعم الأغلب ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْشَاهُ بِنَعِيمِهَا. وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مُتَنَاهِيَةٌ فِيمَا تَغْشَاهُمْ بِهِ ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْغَاشِيَةَ تُطْلَقُ عَلَى الْخَيْرِ كَمَا تُطْلَقُ عَلَى الشَّرِّ، بِمَعْنَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ التَّامَّةِ. وَمِنْ إِطْلَاقِهَا عَلَى الْخَيْرِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

و((خَاشِعَة)) أي : ذليلة من هول ما ترى .

قال الرازي : ((وَقَوْلُهُ: خاشِعَةٌ أَيْ ذَلِيلَةٌ قَدْ عَرَاهُمُ الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ ، كَمَا قَالَ : (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ وَقَالَ : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ) وَإِنَّمَا يَظْهَرُ الذُّلُّ فِي الْوَجْهِ ، لِأَنَّهُ ضِدُّ الْكِبْرِ الَّذِي مَحَلُّهُ الرَّأْسُ وَالدِّمَاغُ)) .

والمؤمن أيها الأخوة مأمور أن يخشع في صلاته وأن يخشع عند آيات ربه وإلا خشع في الآخرة إذا لا ينفعه الخشوع ، قَالَ الْحَسَنُ : ((هَذِهِ الصِّفَاتُ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ حَاصِلَةً فِي الدُّنْيَا لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ سَلَّطَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى سَبِيلِ الْعِقَابِ)) .

قال تعالى : ((عَامِلَةٌ نَاصِبَة)) أي : في يوم القيامة من ركضهم وذهابهم وإيابهم وصعودهم وقلقهم وحركتهم وحملهم أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ينصبون ، أي : يتعبون ، ثم يزداد التعب والنصب حينما يلقون في النار ، قال تعالى : ((سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا)) .

ثم قال تعالى : ((تَصْلَى نَارًا حَامِيَة)) أي : هذه الوجوه وأصحابها تصلى ناراً حامية ، وهي النار الكبرى التي مر ذكرها في السورة السابقة . وقد وصفها ربنا في هذه السورة أنها حامية وفي ذلك بيان أنها لا تبرد ولا تفتر أبداً ، وإنما تلتهب وتتقد وتتلظى أبداً وتتغيظ على الكافرين كما قال تعالى : ((وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)) .

وَكَانَ يَكْفِي تَصْلَى نَارًا . وَلَكِنْ إِتْبَاعُهَا بِوَصْفِهَا حَامِيَةً ؛ هُوَ زِيَادَةٌ فِي إِبْرَازِ عَذَابِهِمْ ، وَزِيَادَةٌ فِي غَشَيَانِ الْعَذَابِ لَهُم

ثم قال تعالى : ((تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَة)) بمعنى : تَسقي ملائكةُ العذاب ، وهم الملائكة الغلاظ الشداد هذه الوجوه الكافرة من ماء عين قد بلغت حرارتها أشد ما يكون من الحرارة .

والآنية شديدة الحرارة ، قال تعالى : ((هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)) والحميم هو الماء الحار ، والآن هو البالغ في الحرارة ، وقال تعالى : ((وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)) فمن شدة حرارته يشوي وجوههم قبل أن يشربوه ؛ فإذا شربوه قطّع أمعائهم كما قال تعالى : ((وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم)) والإنسان إذا تقطعت أمعائه في الدنيا يموت أما في الآخرة فالأمر مختلف كما في السورة السابقة : ((وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)) .

وبعد أنْ بيّن الله شرابهم بيّن طعامهم فقال تعالى : ((لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)) والضريع هو النبات السام المؤذي ، وقد بيّن الله أنه لا يسمن ولا يدفع جوعاً فقال تعالى : ((لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)) وهذا السياق من الآيات بيّن عذاب أهل النار فهم يعذبون بالجوع والعطش ويعذبوب بشرب الماء الحميم ويأكلون الضريع الذي يغلي البطن كغلي الحميم كما قال تعالى : ((إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)) وقال تعالى عن أهل النار : ((فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)) .

وفي ذكر طعام أهل النار تذكير بإنعام الله علينا بنعمة الطعام في الدنيا ونحن الآن نطعم وفيه فوائد منها إماطة الجوع، وإفادة القوّة والسمن في البدن والتفكه بالمطعم والمشرب وقد مر في سورة عبس الكلام عن وجوب النظر في الطعام .

ثم قال تعالى مبيّناً حال أهل الجنة : ((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَة)) يومئذٍ أي : يوم أحداث الغاشية التي هي القيامة ،أي : يوم الغاشية وهي القيامة فثمة وجوه ناعمة من النعيم كما قال تعالى : ((إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)) . فوجوه في يوم الغاشية قد ظهر عليها الحسن ، والبهاء الذي يكون من أثر النعيم ، وهي وجوه المؤمنين .

فناعمة أي : نضِرة طيبة مرّفهة هادئة مستريحة مسرورة فرحة ليّنة الملمس بما تنال من نعيم الله وفضله وعميم إحسانه .

قال أبو منصور الماتريدي : (أي : ناعمة بما عاينت من عاقبة عملها الصالح في الدنيا، ورضيت بما أوتيت جزاءً عن سعيها في الدنيا ، جعل الله تعالى في وجوه الخلق يوم القيامة آثار صنائعهم

في الدنيا : فمن أطاعه جعل علَم طاعته في وجهه يوم القيامة ، ومن عصاه جعل أثره في وجهه يعرف به) .

ثم بين ربنا فقال : ((لِسَعْيِهَا رَاضِيَة)) أي : إنهم رضوا عن سعيهم في الدنيا عملاً وكدحاً في طاعة الله لما رأوا المصير ورضوا عن النتيجة التي صاروا إليها ، والرضا نعمة بعد النعمة تجعل طمأنينةً في النفس وسيأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله في السورة اللاحقة .

ثم بين الله مكانهم فقال : ((فِي جَنَّةٍ عَالِيَة)) فالجنة عالية بارتفاعها وعظمتها وسعتها ، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ» وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»

ثم بين تعالى حال الجنة فقال : ((لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَة)) والجنة عالية علواً حقيقياً وعلواً معنوياً ، وهذا الوصف : ((لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَة)) من العلو المعنوي ، فلا يُسمع في الجنة كلمة لغو ، واللغو هو الكلام الذي ليس له معنى وفي سورة القصص : ((وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)) وفي سورة الطور : ((وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ

رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ)) فالجنة ليس فيها لغو ولا كلامٌ فاحشٌ ولا بذيءٌ ولا محزن ، وإنما كلام أهلها خيرٌ وبرٌّ .

وفي صحيح مسلم من حديث جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ» فكلامٌ أهل الجنة جعلنا الله وإياكم منهم ذكرٌ وبرٌ وشكرٌ وحمدٌ وثناءٌ وهو جزء من النعيم الذي يتلذذون به . فالجنة لا تسمع فيها كلمة باطل لأن الجنة طيّبة طيّب ما فيها وهي دار سلام وأمن دائم لا يزول ولا يحول .

«لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً» : مَنْزِلَةٌ أَدَبِيَّةٌ رَفِيعَةٌ ؛ حَيْثُ لَا تَسْمَعُ فِيهَا كَلِمَةَ لَغْوٍ وَلَا يَلِيقُ بِهَا، فَهُوَ إِكْرَامٌ لَهُمْ حَتَّى فِي الْكَلِمَةِ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا .

ثم قال تعالى : ((فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)) وعين هنا اسم جنس بمعنى عيون قال تعالى : ((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ)) .

ثم قال تعالى : ((فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)) والسرير من السرور وقد وصفها الله أنها مرفوعة ولا يعلم رفعتها الحقيقة إلا الله وهي مرفوعة رفعة معنوية ، فهي أعدت للأطهار الأبرار الذين نقّوا فروجهم عما لا يحل وطهروها احتساباً لأجر ذلك اليوم وخوفاً من عقاب الله فيه وطهروا باطنهم من تخيّل الحرام ، وما أحسن قول ابن كثير عند الآية الخامسة والثلاثين بعد المئتين من سورة البقرة في تفسيره النفيس إذا قال : ((وَقَوْلُهُ : ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)) تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ ، ثُمَّ لَمْ يُؤْيِسْهُم مَنْ رَحِمَتْهُ ، وَلَمْ يُقْنطهم مِنْ عَائِدَتِهِ ، فَقَالَ : ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ))

فنصيحتي لكل مسلم في هذه الدنيا : طهّر سريرك ، ويشمل قوله تعالى ((فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَة)) أنَّ من على السرر هن الطاهرات المطهرات المكتملات في الهيئة والشكل والظاهر والباطن والخلق والخلق كما قال تعالى : ((وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)) قال السعدي : ((ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه، وأوضحه فقال: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} فلم يقل "مطهرة من العيب الفلاني "ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن، أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولي والفعلي ، ومطهرٌ خَلقُهن من الحيض والنفاس والمني ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة ، ومطهرات الخلق أيضاً ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف ، قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح)) .

وجمعت السرر لأنَّ من شأنها أن تكون أفرادها مخصوصات لأصحابها فهي موزعة بينهم . ووصفت أنها مرفوعة للإشارة إلى أنَّ ارتفاعها زائد على ما يعلم من الأسرة التي يتخذها الملوك وأهل الثراء والرفاهية في الدنيا والدلالة على نفاستها وارتفاع مكانة ذواتها .

ثم قال تعالى : ((وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَة)) والأكواب جمع كوب والكوب هو الإناء ، وقد جاء لفظ أكواب مجموعاً للدلالة على كثرتها وتنوع أشكالها ومحتوياتها ، ووصفها ربنا بأنَّها مَوْضُوعَة ، أي : قريبة منهم ، وفي متناولهم . وهي كونها قريبة منهم فهي مقدرة تقديراً يتناسب مع الشرب والفكاهة كما قال تعالى : ((وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)) .

ثم قال تعالى : ((وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَة)) والنمارق : جمع نُمْرُقَة وهي الوسائد ، فهي مصفوفة بعضها إلى جنب بعض لقعودهم ومتكئهم .

قال تعالى : ((وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَة)) والزرابي : هي البسط تنسج من الصوف الناعم الملون وتفرش على الأرض للزينة والجلوس عليها .

وقوله مَبْثُوثَة أي : موزعة مفرقة توزيعاً جمالياً على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها .

ثم قال تعالى : ((أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت)) ومخلوقات الله تعالى في البر والبحر والجو كلها مدعاة للتفكر في عظمة موجدها ، وجاء الأمر هنا إلى التفكر في النظر إلى الإبل كيف خلقت ، الإبل : هي الجِمال ، وتسمى النوق ولفظ الإبل اسم جنس لا واحد له من لفظه وهو مؤنث فيقال هي الإبل ، ويجمع لفظ الإبل على آبال ويقال للقطيعين من الإبل إبلان .

والإبل مدعاة للتعجب والاعتبار في خِلقته وقوته وصبره واحتماله للجوع والعطش مع قدرته على حمل الأثقال والنقل ، وأُنسيتُها وكونُها قريبةً من الإنسان ، وكان يسمى قديماً بـ سفينة الصحراء .

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بعض خصائص الإبل : ((

١- يستخدم الجمل في قضاء كثير من حاجات الناس اليومية ، ومنها جر المحاريث لإعداد الأرض الزراعية وتهيئتها للزراعة ، ونضح الماء من الآبار بالسواني وغيرها ، ومنها نقل ما يحتاج إلى حمل ونقل .

٢- والجمال مصدر ذو قيمة عظيمة من مصادر الغذاء لسكان الصحارى ، فيأكلون من لحومها وشحومها ، ويشربون من ألبانها ، وكذلك لسكان المدن والقرى .

٣- وفي أوبار الجِمال وجلودِها وعظامها منافعٌ كثيرةٌ للناس .

٤- تفقدُ كلُّ الجمال وبرَّها في فصل الربيع ، وتكتسي وبراً جديداً في فصل الخريف بعد ذلك .

٥- للجمل عينان واسعتان على جانبي رأسه ، ولكل عين رموش مقوسة ، تقي العينين من الرمال إذا هبت الرياح . وله جفون كثيفة الشعر تقي عينيه من شمس الصحراء ، ولا تسمح بدخول ضوء زائد يؤذيهما .

٦- ويتكون سنام الجمل في معظمه من الشحم ، وهو المخزن الأعظم الذي تتزود من غذاؤها عند فقد الطعام الذي تحتاج إليه في الصحراء .

٧- للجمل قدرة على العيش بدون ماء لأيام كثيرة قد تصل إلى أسابيع ؛ إذ يكتفي بالماء الذي يمتصه من طعامه الرطب وهو يحتفظ بمعظم مقادير الماء في جسمه .

إلى غير ذلك من صفات أجسام الجمال المهيئة والمعدة إعداداً تام الاتقان والإحكام لوظيفتها النفعية للناس في الحياة الدنيا)).

وقال أبو حيان : ((فَإِنَّهُ اجْتَمَعَ فِيهَا مَا تَفَرَّقَ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي غَيْرِهَا ، مِنْ أَكْلِ لَحْمِهَا ، وَشُرْبِ لَبَنِهَا ، وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا ، وَالتَّنَقُّلِ عَلَيْهَا إِلَى الْبِلَادِ الشَّاسِعَةِ ، وَعَيْشِهَا بِأَيِّ نَبَاتٍ أَكَلَتْهُ ، وَصَبْرِهَا عَلَى الْعَطَشِ حَتَّى إِنَّ فِيهَا مَا يَرِدُ الْمَاءَ لِعَشْرٍ، وَطَوَاعِيَتِهَا لِمَنْ يَقُودُهَا ، وَنَهْضَتِهَا وَهِيَ بَارِكَةٌ بِالْأَحْمَالِ الثِّقَالِ ، وَكَثْرَةِ حنينها ، وَتَأَثُّرِهَا بِالصَّوْتِ الْحَسَنِ عَلَى غِلَظِ أَكْبَادِهَا ، وَهِيَ لَا شيء من الحيوان جمع هَذِهِ الْخِصَالَ غَيْرُهَا. وَقَدْ أَبَانَ تَعَالَى امْتِنَانَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)) . وَلِكَوْنِهَا أفضل ما عند العرب ، جَعَلُوهَا دِيَةَ الْقَتْلِ ، وَوَهَبُوا الْمِائَةَ مِنْهَا مَنْ يَقْصِدُهُمْ وَمَنْ أَرَادُوا إِكْرَامَهُ ، وَذَكَرَهَا الشُّعَرَاءُ فِي مَدْحِ مَنْ وَهَبَهَا)) .

انتهى كلامه ونحوه للرازي .

ثم قال تعالى : ((وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَت)) وهنا جاء الندب إلى النظر إلى السماء وإلى التفكر كيف خلقت ففيها عجائبُ وغرائبُ ودلائلُ لمن يتدبرُ ويتفكرُ بأنَّ لها خالقاً مدبراً سميعاً بصيراً قوياً ، يقوم بشؤونها ويُحصي أمرَها ، لا يُشركِه سواه في هذا الإبداع والصُنع ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)) والسماءُ تُفيضُ بماء الحياة ، والنظرُ إليها عبادةٌ .

وقد عظّم ربنا قدْر السماء في أعين الخلق وأمر بالنظر إليها لما جعلها معدنَ رزقِهم ومسكنَ أولي القَدر من خلقه ، وهم الملائكة ، وفيها مصاعدُ العمل الصالح ، وخلقها بغير عَمَدٍ تُرى .قال تعالى : ((وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)) وفي ذكر البناء ما يدل على القوة والإحكام كما قال تعالى : ((والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)) وفي ذكر السماء امتنانٌ من الله وملمحٌ إلى العظمة والقوة على هذه الآية العظيمة التي تدل على الخالق .

والسموات سبعٌ ، وقد خلقهنَّ الله شداداً ، أي : قويةً محكمةً محصنةً ، فـ(سَبْعاً) أي : سبع سماوات (شِداداً) جمع شديدة ، يعنى : محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان ، وهي طباقٌ أي : بعضها فوق بعض .

(شداداً) أي : هي في غاية القوة والإحكام ، لا صدع فيها ولا فطور ولافتق ، لا يؤثر فيها كر العصور ولا مر الدهور ، حتى يأتي أمر الله بإظهار عظائم المقدور .

((وبنينا فوقكم سبعاً شداداً)) آيةٌ عظيمةٌ وخلقٌ كبيرٌ ، هذه السماء التي فوقنا ، وقد ذكرها الله في كتابه مراتٍ عديدة ، وندب الشارعُ إلى النظر إليها تفكراً وعبادةً ، وقد أحسنَ البخاريُّ في صحيحه إذ قال : ((بَابُ رَفْعِ البَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} وَقَالَ أَيُّوبُ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: رَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ)) قبيل (٦٢١٤) ؛ إذ النظر إلى السماء عبادة يؤجر عليها المؤمن ، ثم ساق البخاري حديثين يدلان على هذه السنة .

ثم قال تعالى : ((وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)) وهذا أمر بالنظر إلى مخلوقات الله عموماً وإلى الجبال خصوصاً كيف أن الله خلقها ونصبها بل النظر في التفكر في باطنها كما قال تعالى : ((والجبال أوتاداً)) إي : إنَّ الله سبحانه وتعالى قد جعلها أوتاداً للأرض فهي بمنزلة الوتد للخيمة حيث يلزمها فتثبت به .

وقد أبان الله عن هذه النعمة الكونية والآية الربانية في مواضع كما قال تعالى : ((وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)) ثم إنَّ هذه الجبال قد ثبت لنا بالتجربة أنَّ لها جذوراً في الأرض ، فلِكل جبل وتدُهُ النازل في الأرض ليُثَبِّت الأرض أنْ تميد وتضطرب ، ويثبت هذا الجبل بالوتد أي : بالجذر فلا تزيله الرياح فهما آيتان آيةٌ ظاهرة وآيةٌ باطنة .

ونعمة (الجبال أوتاداً) متممة لنعمة (الأرض مهاداً) ، والقرآن له عطاء إلى أنْ تقوم الساعة فما زال العلماء يكتشفون فوائد الجبال وأنَّ لها جذوراً .

وإنَّما كانت الجبال أوتاداً ؛ لأنَّ بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ، ولأنَّها في تثبيت الأرض ومنعها من الميّدان والاضطراب ، كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك .

ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من الموادّ الدائمة الجيشان ، فعلى الأرض نعم ظاهرة وفي باطنها نعم باهرة .

قال ابن كثير : ((﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أَيْ: جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً قَائِمَةً ثَابِتَةً رَاسِيَةً لِئَلَّا تَمِيدَ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ.))

ثم قال تعالى : ((وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت)) وهذا أمر بالنظر إلى نعمة الأرض أنها نعمة بسطها الله لنا ومهّدها للعيش والبناء والحرث والزرع وبسطها ليسلك الناس فيها سبلاً وطرقاً وجعلها الله وعاءً للأحياء والأموات ، كما قال تعالى : ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)) .

وبعد أن عدد الله علينا النعم جاء الأمر بالنظر للاعتبار والتفكر لينشط الإنسان بالعمل قال تعالى : ((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)) أمرٌ بوعظ الناس وتذكيرِهم بحقوق الله ، وقوله : ((إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)) بيان أنَّ الوظيفة الرئيسة للعبد التذكير بتبليغ رسالات الله . ثم بين ربنا أنه ليس بمتغلب عليهم فقال تعالى : ((لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)) وهذا معنى مهم على الدعاة أن يعوه ليكون عملهم خالصاً صواباً ، وهو أن الداعية مذكر بالله وبأمر الله وليس حاكماً متغلباً على الآخرين، إنما الواجب التبليغ وبذل الوسع في ذلك .

ثم قال تعالى : ((إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)) أي : لكن من تولى وكفر فشأنه إلى الله تعالى إذ جاء الوعيد والتهديد قال تعالى : ((فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)) والمعنى : أمره إلى الله ليس إليك وإنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب .

ثم قال تعالى : ((إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)) أي : فلا تعجل عليهم فالدنيا ليست دار عقاب لأعداء الله ولا دار نعيم لأوليائه بل هي دار امتحان واختبار .

ثم قال تعالى : ((ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)) أي : فيحاسبهم الله بما عملوا كما قال تعالى : ((وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)) .